الإسهامات الحضارية للمرأة في المعرفة اللغوية
بين الواقع والطموح

د.محمد ذنون يونس فتحي
مدرس
جامعة الموصل/ كلية التربية للبنات

الملخص:
يناقش هذا البحث الإسهامات الحضارية للمرأة في مجال المعرفة اللغوية، ويبين دورها التاريخي في هذا المجال تعلما وتعليما وتأليفا،لاسيما أنها كالرجل تتكلم وتتلقى الكلام وتخاطب مثله بالتشريعات، وسلطنا الضوء على مواطن القوة والضعف في تلك الإسهامات منبهين على الدور الحيوي الذي يمكن أن تلعبه المرأة في تنشئة الأبناء على اللغة السليمة الخالية من اللحن والدخيل وعيوب النطق ومفاسد اللهجات المحلية على مستوى الأصوات والمقاطع.

مدخل عام:

لقد بدأ العصر العلمي عند العرب بنزول الدين الجديد عليهم، فقد غيّر حياتهم وعاداتهم وأخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، ومع ظهور هذا الدين برزت العلوم المتعددة، وأولها نشوء(**الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم**)، وكان من الطبيعي أن يهتم العرب والمسلمون بهذا الكتاب حتى يفهموا حياتهم الجديدة، حيث التفّ رهط من الصحابة يحفظونه ويتدارسونه ويتحرّون في حفظهم الدقة والتروي والضبط التام لألفاظه، ولم يقتصر تعلمه على الرجال بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم النساء أمور دينهن ويعقد لهن المجالس العلمية، وفي هذا الصدد مدحت السيدة **عائشة** رضي الله عنها نساء الأنصار حيث لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين[١].

وفي ذلك الوقت وأثناء التدارس لنصوص القرآن الكريم ظهرت بعض المشاكل اللغوية، ونحن نعلم أن القرآن الكريم نزل باللغة الفصحى، ولم يكن العرب كلهم على معرفة تامة ودقيقة بلغتهم، فقد كان فيهم العالم والجاهل، ومن المشاكل اللغوية التي ظهرت ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سأله أعرابي عن قوله تعالى: (**وفاكهة وأبا**): ما الأبّ؟ قال: نهينا عن التكلف والتعمق[٢]، وكثير من الحوادث اللغوية الأخرى التي تضيق بها هذه العجالة.

واستدعت هذه المشاكل ظهور(علم التفسير والقرآءات)، كما برزت إلى الساحة العلمية(**دراسات الحديث النبوي الشريف**) لأنه المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، ففي القرآن الكريم الأصول العامة للأحكام الشرعية والمسائل العقدية، وفي الحديث تفصيلها وبيانها، وكان الصحابة الكرام حريصين على حضور مجالسه لسماع حديثه وفتواه، حتى سمح لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه بتدوين حديثه بقوله له:" **اكتب عني فوالذي نفسي بيده ما خرج من فمي إلا حق**"[٣]، ومن هذين الأصلين (القرآن والحديث) نشأت علوم اللغة العربية التي لم تكن موجودة قبل الإسلام، ولم تكن معروفة لدى العرب الأوائل لأنهم لم يحتاجوا لذلك، حيث نطقوا بلغتهم صحيحة سليمة خالية من اللحن والخطأ، ولكن عندما

توسعت الدولة الإسلامية وانتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية دخل هذا الدين أفواج من الناس، ومنهم الفارسي والقبطي والرومي والهندي، وغير ذلك من أجناس مختلفة ومتباينة، فخاف العرب المسلمون على لغة القرآن من تسرّب نطق خاطئ أو فهم سقيم أو قراءة غير سليمة، ففكروا في وضع علوم اللغة الشاملة للنحو والصرف والصوت والبلاغة، وقد شعر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بهذه المشكلة، واعتبر اللحن(الخطأ في اللفظ والفهم) ضربا من الضلال، فقال صلى الله عليه وسلم لرجل لحن بحضرته:" **ارشدوا أخاكم فقد ضلّ**"[٤]، وروي عنه انه قال:" **رحم الله امرأ أصلح من لسانه**"[٥]، ثم تتابع الخلفاء من بعده على النهي عن اللحن وضرورة تعلم اللغة كقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:" **تعلّموا الفرائض والسنن واللحن كما تعلّموا القرآن**"[٦]وبدأت ظاهرة اللحن تنمو وتزداد بعد الفتح الإسلامي ودخول الكثير من غير العرب في الإسلام، فينهض عالم جليل كأبي الأسود الدؤلي بوضع علامات فوق الآي لحل مشكلة لغوية خطيرة تتمثّل في الخطأ الأعرابي المؤدي لمعان غير مقصودة أو مخالفة، فقد أورد السيوطي(ت ٩١١هـ) انه قدم أعرابي في زمان عمر رضي الله عنه فقال:" من يقرئني مما انزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، فأقرأه رجل(براءة) فقال: **إن الله برئ من المشركين ورسولِه** بالجر، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه.... فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي إنما هي: **إن الله برئ من المشركين ورسولُه**، فأمر عمر بن الخطاب نتيجة ذلك الخطأ واللحن الكبير **أن لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة**"[٧].

إسهامات المرأة في المعرفة اللغوية من خلال الواقع التاريخي:

ومن المناسب لبحثنا هذا أن نذكر الدور الكبير للحن المرأة في نشوء علم النحو، حيث يذكر أن أبا الأسود الدؤلي دخل على ابنته بالبصرة، فقالت له: يا أبة ما أشدُّ الحرِّ، فرفعت أشدّ وجرّت الحر، فظنها تسأله وتستفهم منه عن أي زمان الحر اشدّ؟ فقال لها: أشهر ناجر، فقالت له: يا أبة أنا أخبرك ولم أسألك، فقال إنا لله، فسدت ألسنة أولادنا[٨]، ويوضح الثعالبي الأهمية الكبرى للدراسات اللغوية في فاتحة كتابه (فقه اللغة) بقوله:" من أحبّ الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، ومن أحبّ الرسول العربي أحب العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ العربية، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام اعتقد أن العربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المبدأ والمعاد، ولو لم يكن بالإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومصارفها والتبحر في جلائلها ودقائقها إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن وزيادة البصيرة في إثبات النبوة التي هي عمدة الأحكام لكفى بها فضلا"[٩].

وبهذه التوطئة المقننة تبيّن أن الإسلام قائم على فهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فهما صحيحا سليما، ولفهمهما والتعرّف على دقائقهما المعنوية لا بدّ من دراستهما كنص لغوي، ولما كانت المرأة مخاطبة كالرجل بالتكاليف الشرعية والقضايا العقائدية كان من الطبيعي أن تهتم المرأة وتشارك الرجل في دراسة اللغة العربية وفهم قوانينها وعلومها المختلفة، ومن مظاهر اهتمامها باللغة ودراساتها اهتمامها بألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف رواية ودراية وتأليفا، ومن المعلوم أن ضبط الألفاظ متوقف على فهم اللغة ودراستها، والإسلام أقرّ بحق المرأة في طلب العلم وممارسة التعليم، حيث حثّ الرسول الكريم على طلب العلم بقوله صلى الله عليه وسلم:(**طلب العلم فريضة على كل مسلم)** وكلمة مسلم هنا اسم جنس أي أنها تشمل الرجل والمرأة والطفل، وتنقل لنا كتب السيرة أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت مرجعا من أهم مراجع السيرة النبوية الشريفة، وكانت فقيهة ومرجعا للرواة والفقهاء والقراء، وقد كرمها الرسول صلى الله عليه وسلم بحديثه الشريف (**خذوا ثلث دينكم عن هذه الحميراء)**[١٠] كما تنقل لنا كتب التاريخ الإسلامي أن **حفصة بنت عمر بن الخطاب** وزوج الرسول صلى

الله عليه وسلم كانت خطيبة فصيحة وراوية حديث، ولم يقف علم السيدة عائشة على العلوم الدينية بل نجدها فصيحة اللسان قوية البيان تحفظ كثيرا من أشعار العرب كما كانت تنشد الشعر، فعن موسى بن طلحة قال: ما رايتا حدا أفصح من عائشة، وعن الشعبي انه قال: إن عائشة قالت: رويت للبيد نحوا من ألف بيت[١١]، وقد حافظت السيدة حفصة على الصحائف المكتوب عليها سور القرآن الكريم، والتي كانت في حوزتها حتى سلمتها للخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فتم نسخها في أول مصحف في التاريخ وتم توزيعه على الأمصار، ويرجع إليها فضل الحفاظ على تلك الصحائف، فلولا قوة إيمانها واحترامها وتقديرها للعلم ولقيمة هذه الأوراق لما حافظت عليها بكل هذه العناية[١٢].

فقد كانت أمهات المؤمنين وعدد كبير من الصحابيات الفضليات منارات للإشعاع العلمي والتعليمي بدء بأم المؤمنين (**عائشة**) رضي الله عنها التي أكثرت من الرواية والفقه والأدب ومرورا بسلسلة جليلة من النساء اللاتي أفنين أعمارهن في طلب العلوم وتحصيلها ونقلها إلى المستفيدين من الأجيال التالية، حتى رأينا كبار العلماء الأماثل كابن حجر العسقلاني والسيوطي وغيرهما يتتلمذان ويأخذان الحديث والعلم عن الشيخات الثقات، ولذا ذكر كبار كتاب الطبقات والتراجم الكثير منهن كمحمد بن سعد في الطبقات الكبرى وابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر في تقريب التهذيب[١٣]، كما ساهمت المرأة العالمة في التكوين المعرفي لكبار العلماء، فالمؤرخ والمحدث الشهير الخطيب البغدادي سمع من الفقيهة(**طاهرة بنت احمد)** (ت ٦٣٤هـ)، وكانت (**امة الواحد بنت الحسين)** (ت ٣٧٧هـ) من افقه الناس في المذهب الشافعي وعلى علم كبير بالفرائض والحساب والنحو[١٤]، وقد تخرج ابن حزم على مجموعة من الشيخات عندما يحكي ذلك قائلا:" ربيت في حجر النساء ونشأت بين أيديهن ولم اعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب **وهن علمنني القرآن ورويننني كثيرا من الأشعار ودربنني في الخط"**[١٥]، ولم يقتصر السيوطي في تلقيه العلم على الأخذ من الرجال، بل أخذه كذلك عن شهيرات نساء عصره ممن تصدرن للعلم، سواء أكنّ من مصر أم من البلدان التي شملتها رحلاته المتعددة، فقد حوى فهرس مروياته ومعجم شيوخه ذكر عدد كبير من أولئك النسوة، فقد ذكر انه اخذ من (**أم هانئ بنت أبي القاسم الأنصاري)**، وذكر انه لما حج سنة(٨٦٩هـ) اخذ عنها كتب أبي البقاء العكبري، وسمع على (**خديجة بنت أبي الحسن أخت جلال الدين بن الملقن)**، واخذ عن (**أم هانئ مريم بنت الشيخ نور الدين أبي الحسن الهوريني)** والدة شيخه سيف الدين الحنفي[١٦].

وقد اشتهرت نساء كثيرات بالعلوم المختلفة مما ينوء البحث بحصرهن، ولذا سنتوقف عند نماذج كثيرة ومتميزة اهتمت بتحقيق الألفاظ القرآنية والحديثية كالسيدة (**مريم بنت احمد بن محمد بن إبراهيم الاذرعي)** المحدثة التي سمعت الحديث ودرسته على أيدي مجموعة من الحفاظ والمحدثين كعلي بن عمر الواني وأبي أيوب الدبوسي وقطب الدين الحلبي وناصر الدين بن سمعون وغيرهم، وأجاز لها التقي بن الصائغ وغيره، وقرأ عليها العلامة المحدث(ابن حجر)، وأسهمت في مجال التأليف الحديثي حيث خرّجت لنفسها معجما في مجلّد[١٧]، بل بلغ فقه بعضهن بدقائق الألفاظ أن يستفسر زوجها العالم منها كالسيدة (**آمنة خاتون المجلسية)** التي تزوجها محمد صالح المازندراني(ت ١٠٨٠هـ) وكان على فضله يستفسر منها بعض عبارات كتاب قواعد الأحكام تأليف العلامة جلال الدين المحلي[١٨]، ولا غرابة في ذلك لان العلم والحكمة يؤخذان من المرأة والرجل على حد سواء، فظهرت الفقيهة والمحدثة واللغوية والخطاطة والأديبة... وصرن مقصدا لطلاب العلم والمعرفة يأخذون عنهن الفتوى والحديث والفقه والنحو... ومن العالمات المسلمات من كانت تعقد مجالس العلم والفتيا في المساجد الإسلامية ويفد عليهن الطلاب من الأقطار المختلفة وعرف عن بعضهن الإكثار من الرحلة في طلب العلم في مصر والشام والحجاز، حتى صرن راسخات القدم في العلم والرواية، ولم تكتف المرأة المسلمة بالمشاركة العلمية بل أسهمت في حركة التأليف والكتابة كما فعلت (**شاهجان بن جهانكير)** الملقبة بعفت حيث أنجزت كتابين

في علمي السلوك واللغة[١٩]، و(**بيبي بنت عبد الصمد الهروية**)(ت١٠٨٤هـ) حيث أخرجت جزء مشهورا في علمي الحديث والرواية[٢٠]، و(**ست العجم بنت النفيس البغدادية**) التي شرحت المشاهد القدسية ومطالع الأنوار الإلهية المنسوبة للشيخ الأكبر في علم التصوف، كما قدمت السيدة (**جليلة بنت صالح**) كتابا في علم الطب، وقامت الشيخة (**حميدة بنت محمد شريف الرويدشتية الأصفهانية**)(ت ١٠٨٧هـ) بالتحشية على كتب الحديث والرواية وغيرهن، ولم تنقطع المشاركة في ميدان التأليف والتدوين العلمي في مختلف العلوم والآداب حتى عصرنا الحاضر كما سنعرض له مفصلا إن شاء الله.

ونجد كتب التراجم والطبقات قد حفظت أسماء مجموعة من الشيخات اللاتي انشغلن بعلوم اللغة العربية فقد ذكر أن السيدة(**إشراق السويدية العروضية**)(ت٤٥٠هـ) أخذت النحو واللغة عن أبي المطرّف القرطبي وفاقته في كثير مما أخذته عنه، وأتقنت العروض ، وكانت تحفظ كتابي النوادر لأبي علي القالي والكامل للمبرد ظاهرا وتتكلم عليهما[٢١]، ويظهر أن هذه المرأة توسعت في دراسة اللغة بحيث عكفت على حفظ كتابين شهيرين في الدراسات اللغوية والنقدية، كما أتقنت علم العروض المحتاج إلى تحليل رياضي وتدقيق صرفي، ومثلها السيدة(**أمة الخالق بنت عبد اللطيف القاهري**)(ت ٨٣٣هـ) التي حفظت ألفية ابن مالك وبعض المنهاج في الفقه الشافعي[٢٢]، ويظهر أنها كانت تتوسل من دراستها للألفية إلى الفهم الصحيح للفقه الإسلامي وأحكام الدين العملية، وأورد السيوطي في بغيته ترجمة امرأتين اهتمتا بعلوم اللغة، وهما: السيدة (**بنت الكنيزي**) التي كانت حسنة المعرفة بالنحو واللغة ولها تصانيف فيهما، والسيدة (**لبنى**) كاتبة الخليفة المستنصر بالله الأموي التي كانت نحوية كاتبة شاعرة بصيرة بالحساب والعروض[٢٣]، وكانت نساء النحويين وبناتهم من المهتمات بهذا الحقل المعرفي، فهذه(**زمردة بنت أبرق**) (ت ٧٣٦هـ) زوج النحوي الشهير(أبي حيان) وأم ولده(حيان) قد سمعت الكثير من الأبرقوهي وغيره، وحدّثت وسمع منها البرزالي، كما كانت ابنته (نضار أم العز) قد أجاز لها أبو جعفر بن الزبير وحضرت على الدمياطي وسمعت من الشيوخ بمصر وحفظت مقدمة في النحو، وكانت تكتب وتقرأ، وخرّجت لنفسها جزء من الأحاديث ونظمت شعرا وكانت تعرب جيدا، وكان أبوها يقول: **ليت أخاها حيان مثلها**[٢٤]، وكالسيدة(**مريانا بنت فتح الله بن نصر الله**)(ت١٩١٩م) الكاتبة والشاعرة، حيث تخرّجت بابيها في النحو والصرف وشيء من اللغة الفرنسية، ثم أتقنتها على بعض الأساتذة[٢٥]، وكالسيدة (**أنيسة بنت سعيد بن عبد الله الخوري**)(ت ١٩٠٦م)، التي تخرّجت بابيها في الإنشاء وأصول العربية[٢٦]، كما اشتهرت نسوة في جانب من جوانب علم اللغة وبرعن به وهو (علم الخط) فقد كانت السيدة(**أسماء عبرت بنت احمد أغا**) خطاطة من خطاطات القسطنطينية واشتهرت بخطها الجميل"[٢٧]، والسيدة(**بادشاه خاتون بنت محمد بن حميد الشاعرة**) ذات الخط الياقوتي وخطّت به المصاحف وذكرت في تذكرة الخطاطين لمستقيم زادة[٢٨]، والسيدة (**حافظة بنت محمد سعيد**) الخطاطة الفاضلة التي تخرجت بسفيان الوهبي وأجادت الخطين النسخي والثلث، ولها آثار خطية متمثلة ببعض لوحات من آي القرآن الكريم[٢٩]، ويذكر الجبرتي أن النساء والبنات كنّ يستمعن من خلف ستار المحاضرات في الحديث الشريف كان يلقيها الشيخ مرتضى الزبيدي في منزل احد الأمراء[٣٠].

إسهامات المرأة في المعرفة اللغوية - عصر النهضة:

ومع بداية عصر النهضة العربية ازداد اهتمام المرأة بالعلوم اللغوية وغيرها، وظهرت العالمات الكثيرات في أصقاع مختلفة من عالمنا الإسلامي ينشرن المؤلفات في علوم اللغة ويسهرن على حفظها وضبطها وسلامتها، ومن الرائدات اللواتي أسهمن في النهضة العربية التي شعت أنوارها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي اشتهرت في كل من لبنان ومصر الشاعرة والكاتبة (**وردة**) ابنة العالم الشيخ (ناصيف اليازجي) وشقيقة الشيخين إبراهيم وخليل اليازجي، فقد ولدت وردة في بلدة كفر شيما

في جنوب لبنان ثم عاشت في بيروت مع أسرتها، وعندما بلغت الثانية عشر من طفولتها لحظ أبوها حبها للمطالعة والعلم، فأحضر لها من درّسها الصرف والنحو والبيان لتتمكن من اللغة العربية، فقد كان أبوها شاعرا، ولما شبّت أحبت شعره فعلّمها علم العروض، وقبل أن تبلغ الخامس عشر شرعت تنظم القصائد في الوصف والمديح، واستمرت على كتابة الشعر والنثر حتى أصدرت ديوانها الأول(حديقة الورد) وهي على مشارف الثلاثين، وألحقته بدراسة نثرية موسعة عن النساء العربيات والغربيات المتفوقات، وقد افتتحت ديوانها بهذه الأبيات التي وجهتها إلى زميلتها وسميّتها(وردة نقولا الترك) وهي ابنة الشاعر الأمير بشير الشهابي قائلة:

ياوردة الترك إني وردة العـرب فبيننـا قد وجدنا اقرب النسـب
أعطاك والدك الفن الذي اشتهرت ألطـافه بيـن العلـم والأد فكنت بين نساء العصر راقيـة أعلى المنازل في الأقدار والرتب

وكانت السيدة(**عائشة التيمورية**) معاصرة لوردة اليازجي فأعجبت بها وأهدت إليها نسخة من ديوانها(**حلية الطراز**)، وكانت مطلعة على نهضة المرأة في أوربا وأميركا في عصرها، فألحقت ديوانها بدراسة نثرية لحظت فيها إفراط بعض العربيات بتقليد الغربيات في ألبستهن والتحدث بلغتهن مهملات بذلك لغتهن العربية وتقاليدهن، ووصفت ذلك التقليد السطحي بالمشين ليقينها بان على نسائنا التمسك بلغتهن وإتقانها قبل كل شئ والاعتداد بأصلهن العربي، كما دعت إلى اخذ اللباب من التقدم في الغرب بالتعلم لا بالقشور، وأطنبت بذكر الرائدتين اللتين عاصرتهما وهما (**زينب فواز**) و(**عائشة التيمورية**) لأنهما حققتا مكانة مرموقة في النهضة العربية بعلمهما وإسهامهما بما نشرتاه من أبحاث ودراسات وقصائد، وعندما تحدثت عن انبثاق النهضة العربية في الأندلس أعطتنا(وردة) شرحا وافيا عن دور الشاعرات والفقيهات اللواتي أسهمن فيها بفضل وعيهن وذكائهن ومؤازرة الرجال لهن، ولقد ختمت ذلك الملحق بتحليل موضوعي لأسباب تخلف النساء عامة في عصرها وأرجعته إلى تقاعسهن في اللحاق بركب التقدم والانشغال بالخرافات ثم عابت تقليد بعض للغربيات في اثر الاتصالات التي جرت مع الغرب تقليدا سطحيا فقط[٣١].

إسهامات المرأة في المعرفة اللغوية- العصر الحديث:

ومع بدايات القرن الماضي كثر الاهتمام بتعليم المرأة تعليما رسميا، وتشجيعها على متابعة دراستها حتى بلوغها أعلى الدرجات العلمية، وحثّها على النشر والتأليف والإبداع في مختلف التخصصات العلمية والحقول المعرفية، وبرزت في ذلك القرن عالمتان في مجال البحث اللغوي، حيث أبدعن العديد من المؤلفات التي أسهمت في تطوير المعرفة اللغوية وتقديم أفكار جديدة تستحق الاهتمام والدراسة، وأولاهما عالمة مصرية اهتمت بالدراسات القرآنية والشخصيات النسائية الشهيرة في تاريخ الإسلام وهي الدكتورة (**عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ**)، وكان يتحتم عليها وهي تبحث في أسرار الإعجاز القرآني والبلاغة القرآنية أن تهتم بالبحث اللغوي للوقوف على قواعد التركيب وجماليات النص وفنية العبارة، فكتبت مؤلفات عديدة، وقدّمت أبحاثا في مجال المعرفة اللغوية تدلّ على الأصالة في البحث والعمق في الفكر والدقة في التأليف، وأتت فيها بآراء جديدة ، وتبلغ- فيما أحصيته- عشرين مؤلفا، هي: (**أم النبي. سكينة بنت الحسين.الغفران. قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر. مع المصطفى عليه الصلاة والسلام. موسوعة آل النبي صلى الله عليه وسلم. نساء النبي. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق. بنات النبي صلى الله عليه وسلم. بطلة كربلاء زينب بنت الزهراء. تراثنا بين ماض وحاضر. التفسير البياني للقرآن الكريم. جديد في رسالة الغفران. الخنساء. دار السلام في**

حياة أبي العلاء. الشاعرة العربية المعاصرة. الشخصية الإسلامية. لغتنا والحياة. مع أبي العلاء في رحلة حياته. مقدمة في المنهج، مقال في الإنسان).

وسنعرض لأهم آرائها اللغوية من خلال كتابيها:

١- الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق:

فقد توقفت الدكتورة (**عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ**) في هذا الكتاب عند ظاهرة(**الترادف**) التي طال الجدل فيها والخلاف عليها، فقد عرضت الآراء التي تقف مع فكرة الترادف وضدها، فمنهم من يذهب إلى وجود الترادف فيحشد للمعنى أو للشئ الواحد ألفاظا ذات عدد دون إشارة إلى كونها لهجات ، وهو مذهب أبي مسحل الأعرابي في كتابه(النوادر) وابن السكيت في كتابه(الألفاظ) والفيروز آبادي في كتابه(الروض المسلوف)، ومنهم من يميز دلالة خاصة لكل لفظ من الألفاظ التي تطلق على الشئ الواحد أو تتوارد على معنى من المعاني، وهو مذهب أبي منصور الثعالبي في (فقه اللغة)، وأبي هلال العسكري في (الفروق اللغوية) واحمد بن فارس في(الصاحبي).

وظلت القضية معلّقة لم يستقر فيها أصحاب العربية على رأي وان كان مذهب القول بالترادف هو الذي غلب وراج في العصور المتأخرة، ويقول به اليوم عدد من أصحاب التخصص في فقه اللغة وعلم الاجتماع اللغوي كالدكتور علي عبد الواحد وافي والأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس، ورأت السيدة عائشة أن من الحق أن لا نأخذ في القضية برأي دون عرضها على القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر لأنه- فيما رأت- يحسم ذلك الخلاف الذي طال، فذكرت أنها منذ اشتغالها على المدى الطويل من تخصص في الدراسات القرآنية شهد التتبع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها انه يستعمل اللفظ بدلالة معينة لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عدد قلّ أو كثر من الألفاظ، فتوقفت عند ألفاظ (الرؤيا والحلم) و(آنس وبصر) و(الناي والبعد) و(الحلف والقسم) و(التصدع والتحطم)و(الخشوع والخشية) و(زوج وامرأة) و(أشتات وشتى) و(الإنس والإنسان) و(النعمة والنعيم) وكانت في كل ذلك تستقري النصوص المختلفة وتلحظ الفروق الدقيقة بين المعاني التي تبدو لأول وهلة مترادفة، ننقل من ذلك تفرقتها اللطيفة بين(الحلف والقسم) بقولها:" وأمام هذا البيان القرآني لا يهون أبدا أن نفسر القسم بالحلف، وصنيع القران يلفت إلى فرق دقيق بينهما، فان لم نقل إن القسم لليمين الصادقة والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها فلا اقل من أن يكون بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص ، فبكون القسم لمطلق اليمين بعامة ويختص الحلف بالحنث في اليمين على ما اطرد استعماله في البيان القرآني"[٣٢].

وتتميز برأي اجتهادي عند تفرقتها بين الخشوع والخشية عندما تقول:" ولا أذكر أن أحدا من المفسرين أو البلاغيين قد التفت إلى هذا الملحظ في خشوع المؤمنين لله في الدنيا وخشوع الكافرين والمجرمين والظالمين في الآخرة، وسرّه البياني – فيما أرى- هو أن خشوع الكفار لا يكون إلا بعد أن يأتي اليوم الذي فيه يوعدون فيخشعوا خوفا ورهبة وذلة على حين يخشع المؤمنون في الدنيا عن صدق إيمان وتقوى وخشية لله.

وانتهت من تلك الجولة العلمية لتؤيد ما ذهب إليه المحققون من أهل اللغة في إنكار القول بالترادف إلا أن يجيء في لغتين، فأما أن يجئ في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد، كما ظن كثير من النحويين واللغويين، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها وما في نفوسها من معانيها المختلفة وعلى ما جرت به عادتها وتعارفها، ولم يعرف السامعون تلك العلل والفروق فظنوا ما ظنوه

من ذلك وتأولوا على العرب ما لا يجوز في الحكم، ومع ذلك فهي تعترف بقصورها عن لمح فروق الدلالة لبعض ألفاظ قرآنية تبدو مترادفة، فليس لي إلا أن اقر بالعجز والجهل وتتمثل بكلمة ابن الأعرابي:" كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل منهما معنى ليس في صاحبه ربما عرفناه فاخبرنا به، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله"[٣٣].

وعقدت بابا بعنوان(**الأساليب وسر التعبير**) توقفت فيه عند ظواهر لغوية معمقة لتفيد منها في بيان جماليات التعبير القرآني كظاهرة الاستغناء عن الفاعل التي لم يحاول احد علماء العربية- فيما تعلم- أن يجمع شتاتها المنتثر لاستجلاء سرها الذي من اجله تستغني العربية عن الفاعل فتسنده إلى غير الفاعل بالبناء للمجهول أو المطاوعة أو الإسناد المجازي، ولفتت انتباهها اطراد ظاهرة الاستغناء عن الفاعل في البيان القرآني في موقف القيامة لتتوصل من خلال هداية البيان القرآني إلى: أن أساليب البناء للمجهول أو المطاوعة أو الإسناد المجازي تلتقي جميعا في الاستغناء عن ذكر الفاعل، واطراد هذه الظاهرة في موقف البعث والقيامة ينبه إلى أسرار بيانية وراء ضوابط الصنعة البلاغية وإجراءات الإعراب الشكلية، فبناء الفاعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه، والمطاوعة فيها بيان للطواعية التي يتم بها الحدث تلقائيا أو على وجه التسخير وكأنه ليس بحاجة إلى فاعل.... والإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعلية محققة يستغني بها عن ذكر الفاعل الأصلي[٣٤].

كما تناولت ظاهرة (**الابتداء بواو القسم والنفي مع القسم**) لتنتهي من ذلك كله بلمسات بيانية تدل على الإعجاز القرآني وبلاغته مختتمة ذلك كله بالتواضع العلمي المعبر عن علمها الجم وأدبها العلمي بقولها:" وإذ اكتفي بهذا القدر مما اجتليت من أسرار الإعجاز في البيان القرآني أرجو أن لا يظن بي أنني أجحد جهود السلف الصالح في خدمة كتاب الإسلام ومحاولاتهم في فهم إعجازه ، فالحق أن عطاءهم السخي كان لنا على تتابع الأجيال ذخيرة ومددا، وتقرر أن الإعجاز البياني للقران يفوت كل محاولة لتحديده ويجاوز كل طاقاتنا في لمح أسراره الباهرة، وقصارى ما اطمأننت إليه في هذه المحاولة لفهم إعجاز البيان القرآني هو: **"انه ما من لفظ فيه أو حرف يمكن أن يقوم مقامه غيره، بل ما من حركة أو نبرة لا تأخذ مكانها في ذلك البيان المعجز"**[٣٥].

٢- لغتنا والحياة:

كما درست الدكتورة (**اللغة من حيث صلتها الحتمية بالحياة**) وتعرّضت للقضايا اللغوية التي تواجهنا في وجودنا المعاصر، لان الدراسة اللغوية في أية مجال لا تفقد صفة المعاصرة مهما يوغل الدارس في الماضي البعيد، إذ يظل موضوع اللغة جديدا ما بقيت هذه العربية أداة نطقنا وتفكيرنا ولسان قوميتنا ووسيلة الثقافة والتعبير عن إنسانيتنا، واللغة التي تصلنا بتراث أسلافنا وتاريخ امتنا وبها نتفاهم ونلتقي عبر حدود الزمان والمكان.

وأثارت السيدة موضوع **الشخصية العربية** التي وحد الإسلام فيما بينها، حيث تعاقبت على حكم مناطقها الرومان والفرس واليونان في ادوار تاريخية واحدة أو متقاربة ففرضوا عليها لغاتهم وعقائدهم وقومياتهم وأعرافهم، ثم مضوا جميعا لم يتركوا قومية معينة، وكل ما خلفوه ذاب في عناصر الشخصية

الأصيلة لإنسان المنطقة، ثم جاء الإسلام فكان التحول الخطير الذي لا يعرف التاريخ له مثيلا ، فما مضى ربع قرن حتى كانت الشام ومصر والعراق قد انتهى تاريخها الروماني والفارسي واليوناني وبدا تاريخها الإسلامي العربي، وعلى ذلك المدى الطويل بقيت لغات الغزاة وثقافاتهم وعقائدهم المفروضة بالإكراه لغة دواوين وثقافة دخيل وعقائد مستعمر تواجهها الشعوب بالتحدي الذي يتمثل في الإصرار على التعامل بلسانها القومي خارج الحدود الرسمية، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن ما تركه الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي الذي احتل البلاد نحو ستة قرون لم يصمد للفتح الإسلامي، وان اللاتينية التي بدا أنها سادت الشمال الإفريقي زمانا صفيت في القرن الهجري الأول.

وتسهب في نقاش طويل حول قوميتنا بين عروبتها وأصولنا القديمة لتنتهي بالقول:" إن الجيل الأول بعد الفتح مباشرة امتزجت فيه الدماء العربية بالدماء الموروثة مهما يختلف عليها علماء الأجناس والسلالات ثم تتابعت الأجيال والتعرب يزداد عمقا ورسوخا وتأصلا، وعناصر الشخصية القومية لشعوب الوطن العربي الإسلامي تنصهر في بوتقة البيئة المادية والمعنوية بحيث يتعذر على أدق جهاز علمي أن يميز ما في عروقنا من الدم العربي الصريح أو الدم القديم الموروث"[٣٦].

كما تناقش السيدة مسألة العلاقة بين(**اللغة والقوة**) فتردّ على من قال: إن اللغة العربية اعتمدت في انتشارها على السلطة الحاكمة كما تصور بعض الدارسين فيما أسموه(**سلطان اللغة الغازية**) ويعنون به القوة المستمدة من السلطان السياسي ، لان المنطقة تعرّضت للغزو من لغات أخرى قبل الإسلام، لكن الشعوب المغلوبة رفضت متشبثة بقديمها محافظة على تراثها، وفي عصر الاستعمار الحديث نرى الدول الغازية كان لها سلطان مسيطر على أقطار الوطن العربي، وقد حاولت جهدها أن تفرض عليها سلطان اللغات الغازية، فلم تبادر شعوبنا المغلوبة إلى التقرب من الغزاة الغالبين ومجاملتهم ومحاكاتهم، ولم تسع دائما إلى التحلل من لغتها العربية بل ناضلت عن وجودها الوطني ضد المسخ والسلخ وعن لسانها العربي ضد الغزو، فانحصرت اللغات الغازية في الدواوين ودور التعليم الخاضعة للغالب ، وبقيت شعوبنا بمعزل عنها ترفض في عناد وإصرار فيما عدا قلة من المثقفين المتفرنجين الذين استعاروا لغات الغزاة بالقهر والسلطة أو عن طواعية وتقليد ومحاكاة وتقرب إلى الحكام، وهذه القلة من المتفرنجين لا يمكن أن تمثل وجدان الشعب وضميره، ولا يجوز أن نحكم بسلوكها على الملايين من جماهير الشعوب العربية التي ما نعرف أنها تخلّت عن لغتها القومية، فلولا أن اللغة العربية في ذاتها كانت صالحة للبقاء لانحصرت في النطاق الديني للشعوب المسلمة أو في المجال الرسمي خضوعا للسلطة السياسية[٣٧].

كما توقفت الدكتورة عند مشكلة (**العامية والفصحى**) مبينة أن الاستعمار استغل هذه الظاهرة ليحارب الفصحى بلهجاتها الشعبية تمزيقا لوحدتها اللغوية والفكرية، فراجت دعاوى تتهم الفصحى بالعقم والبداوة، وتلقي عليها مسؤولية تخلفنا وتدعو للعامية فتزعم لها القدرة على الوفاء بحاجات وجودنا اللغوي الحديث، وترى فيها المفتاح السحري لتقدمنا العلمي والحضاري والوسيلة الميسرة لتثقيف الجماهير وتعليم الأميين، كالأستاذ سلامة موسى الذي ارجع مظاهر التخلف في مجتمعنا فردها كلها إلى عقم لغتنا الخرساء، كما دخلت قضية المرأة في المعركة، فاللغة مسؤولة كذلك عن رواسب تخلفها واستعبادها، فقد ألغى المجتمع العربي القديم المرأة من الحياة الاجتماعية إلغاء يكاد يكون تاما، أما نحن فقد رددنا الاعتبار للمرأة المصرية- كما يقول- ولكن ما زلنا نستعمل القديمة فنقول: أم فلان أو حرم فلان، ولا نذكر الاسم مع أن الاسم جزء من الشخصية وإهماله هو سبّة للمرأة، وإهمالنا لاسم المرأة هو تراث لغوي قديم يحمل إلينا عقيدة اجتماعية يجب أن نكافحها، ونتعجب من كلامه بان المرأة الانكليزية وكل نساء الغرب الحديث الراقي يتزوجن فلا يعرفن بغير حرم فلان، ونحن هنا نحتفظ بأسمائنا بعد

الزواج ونتعامل في الحياة بأسمائنا وذواتنا، فابسط معلمة في مدرسة ابتدائية تعرف باسمها لا باسم زوجها، على حين تعرف العالمة الغربية الكبرى باسم مدام كوري، ولا يمكن أن تكون هذه المجتمعات الراقية قد ورثت هذه السبة عنا، لان المجتمع الإسلامي القديم ابرأ المرأة من إسقاط اسمها تستوي في ذلك نساء النبي صلى الله عليه وسلم فيقال: خديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر وسكينة بنت الحسين واصغر ممرضة في وحدة صحية بإحدى قرى الريف[٣٨].

كما تتوقف السيدة عند مسألة (**عجز اللغة عن أداء العلوم الحديثة**) حتى كدنا ننسى ماضيها العلمي في عصر الحضارة الإسلامية وفجر العصر الحديث، فقد استطاعت العربية منذ عشرة قرون وأكثر أن تستوعب كل التراث الفلسفي والعلمي للأمم القديمة، وان تنقل إلى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التي عرفها التاريخ، ففي القرن الأول الهجري بدأ اتصال العربية بالتراث العلمي القديم في حركة ترجمة لكتب في النجوم والفلك والطب والكيمياء، ثم ما لبثت العقلية الإسلامية أن هضمت ذلك التراث وتمثّلته فأعطته روحا جديدة على نحو ما فعلت مدرسة الإسكندرية بالفكر اليوناني حين هاجر إليها، وتلقى معجم العربية رصيدا ضخما من المصطلحات العلمية المعرّبة إلى جانب الألفاظ العربية التي أمكن تطويعها للمصطلح العلمي، ولا يذكر التاريخ أن حركة إحياء التراث العلمي قد انتظرت طويلا ريثما يستقرّ رأي المختصين على إمكان نقل العلوم إلى العربية[٣٩].

وأما العالمة الثانية فهي عراقية تخصّصت في حقل لغوي ذي قواعد متشابكة وفروع متشعبة، وهو(علم النحو) إلا أنها سارت في ذلك الطريق بكل تأن ودقة، وقدّمت مجموعة من التآليف البالغة في التخصص، وتفرّدت بآراء عديدة ذات قيمة ووجاهة وبأفكار سديدة ذات عمق وأصالة، وناقشت كبار النحويين من القدماء والمحدثين، فاعترضت وعالجت وهذّبت ونقّحت، فكان لها حضورها اللامع ودورها البارز، ولقد تركت الدكتورة مجموعة من المؤلفات في النحو العربي، هي:(**أبنية الصرف في** كتاب سيبويه، ١٩٦٥. أبو حيان النحوي، ١٩٦٦. كتاب سيبويه وشروحه، ١٩٦٧. سيبويه- حياته وكتبه، ١٩٧٤. موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، ١٩٨١. المبرد – سيرته ومؤلفاته، ١٩٩٠. دراسات في كتاب سيبويه،١٩٨٠).

كما حققت مجموعة من المخطوطات العربية الإسلامية، هي: (التمام في تفسير أشعار هذيل لابن جني، ١٩٦٢. التبيان في علم البيان لابن الزملكاني، ١٩٦٤. البخلاء للخطيب البغدادي، ١٩٦٤. من شعر أبي حيان الأندلسي، ١٩٦٦. البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ١٩٦٧. الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا، ١٩٦٨. ديوان أبي حيان الأندلسي، ١٩٦٩. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزملكاني، ١٩٧٤. تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب لأبي حيان الأندلسي، ١٩٧٧).

وألفت كتبا مدرسية بعنوان **(لغتي) للصف الخامس والسادس الابتدائي، عام ١٩٥٩.**

وسنقتصر في هذا البحث على إسهاماتها في المعرفة اللغوية من خلال كتبها الأربعة الآتية، وهي:

١- دراسات في كتاب سيبويه:

فقد ألّفت الدكتورة خديجة الحديثي هذا المؤلف الذي يعالج مسائل حيوية ومهمة في (علم النحو) وكان الهدف من التأليف التعرّف على مواقف سيبويه في أمور متعددة طال البحث فيها وتضاربت الآراء في موقفه منها، وكان منهجها عرض الآراء لمن جاء بعده في الموضوع وأقوالهم، وحاولت

استقراء ما جاء في الكتاب مما يتعلّق بهذه الموضوعات مركزة الجهد على تفهم نصوص سيبويه، فعقدت **مبحثا للقراءات والحديث**، حيث تتبعت المواضع التي استشهد فيها سيبويه بآيات القران الكريم وقراءاته المختلفة مبينة الطريقة التي سار عليها في هذا الاستشهاد ومدى اهتمامه بجعل الآيات القرآنية أساسا لقواعد كتابه الكبير، وحاولت أن ترد على الذين قالوا انه يخطئ القراء ويلحنهم ويضعف القراءات بأنهم لم يكونوا دقيقين في حكمهم، وتتبعت في استشهاده بالحديث الأحاديث الشريفة التي وردت في كتابه، ولاحظت انه لم يشر في أي واحد منها إلى انه حديث نبوي، إنما احتج بها وتمثل كما يحتج بأي كلام عربي منثور أو قول منقول عن العرب من غير تحديد، **ولم يرد في كتابه ما يشير إلى انه أو احد شيوخه أو شيوخهم الأولين قد صرّحوا بعدم الاحتجاج بالحديث أو أشاروا إليه من قريب أو بعيد**، فأوضحت بذلك أن المتأخرين من أمثال ابن الضائع وأبي حيان لم يبنوا قولهم بمنع الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف على رأي ثابت جاء عن سيبويه أو عمن تقدمه من البصريين[٤٠].

كما اهتمت بموضوع (**الضرورة الشعرية**) وبينت المقصود منها عند سيبويه وشيوخه خاصة بعد أن كثر القول في معناها ، واختلف النحاة في البيت الواحد بين من يقول انه جائز ومن يقول انه ضرورة حسنة، ومن يقول انه ضرورة قبيحة ومن يقول إنها لغة قوم تكلم بها الشاعر، كما استطاعت أن تبين حقيقتها من خلال كتاب سيبويه بأنها ليست مما يضطر إليه الشاعر بحيث لا يجد مخرجا منها إلى غيرها من الأساليب، إنما الضرورة عنده: **ما خالف فيه الشاعر بعض القواعد التي تعدّ خطأ لو جاءت في الكلام المنثور مما لا يكون الشاعر فيه لاحنا ولا خارجا على قواعد الشعر سواء اضطرّ إلى هذا الخروج والمخالفة أم لم يضطرّ**[٤١].

كما عقدت مبحثا لـ(**العلة النحوية**) لترى مدى صحة ما جاء به ابن مضاء القرطبي في كتابه (الرد على النحاة) من اتهام البصريين بأنهم افسدوا النحو بما حشدوه فيه من العلل الثواني والثوالث وما زاد عليها، ووضحت بعد استقراء المسائل التي ورد فيها ذكر العلة في كتابه: إن سيبويه وشيوخه قد اتبعوا التعليل لتوضيح أمور وردت في أساليب كلام العرب المختلفة مما جاء على أكثر من وجه ليبينوا سبب هذا الاختلاف ، ولماذا يعتبر احدهما صحيحا قويا وما سواه ضعيفا أو خطأ؟ أو لماذا صحّت كل الأوجه التي وردت عليها العبارة، وعلام يفسر كل هذا؟ فاحتاجوا إلى التعليل بالعلة الأولى، ولم تلاحظ في الكتاب هذا التعقيد بذكر علة العلة أو علة لعلة العلة وهكذا حتى تتعدد العلل[٤٢].

٢- أبو حيان النحوي:

وفي كتابها عن(**أبي حيان النحوي**) وضعت تعريفا بحياة أبي حيان في موطنه الأصلي (الأندلس) ثم في موطنه الجديد (القاهرة) التي استقر فيها، إذ كان من علماء الأندلس الذين وفدوا على مصر وتحولوا بها يدرسون ويعلمون ويحاضرون، ومعروف أن مصر ضمت إلى صدرها- مع غارات الصليبيين على بلدان الأندلس والشام ومع سقوط البلدان الإسلامية في آسيا بأيدي التتار- علماء كل تلك البلدان الذين لجاوا إليها وشجعتهم على مواصلة الدرس والبحث، وكان أبو حيان احد أولئك الذين وضعوا في النحو بعض المتون وشرح بعض المختصرات فيه، فشرح غير كتاب لمواطنيه ابن عصفور وابن مالك موجزا تارة ومطنبا تارة ثانية، بل مسرفا في الإطناب أحيانا، ليتحول شرحه لكتاب ابن مالك المسمى بـ(**التسهيل**) إلى موسوعة نحوية كبرى تجمع أصول النحو وفروعه المتشعبة وآراء النحاة على مدى العصور المتعاقبة، واختصر هذه الموسوعة بعض الاختصار في موسوعة ثانية سماها(**ارتشاف الضرب من لسان العرب**) وعلى كل هذا التراث العلمي النحوي أكبت **الدكتورة الحديثي** تنقّب وتفحص وتجمع محاولة أن تستخرج آراءه التي خالف فيها سالفيه من النحاة وان تستنبط مذهبه النحوي الذي تفرّد

به، وقد جلّت آثاره النحوية وغير النحوية خير تجلية، واستطاعت أن ترسم له مذهبا واضحا في النحو، وهو مذهب يقوم على تأثره بمذهب الظاهرية وامتداده عند ابن مضاء القرطبي في كتابه(الرد على النحاة) ملاحظة تأثره بهذا الكتاب في رفضه للتمارين النحوية غير العملية وللعلل الثواني والثوالث مما لا يفيد منه النحو فوائد محققة، ولاحظت انه كان يقدّم السماع على القياس إذا تعارضا مع ارتباطه إلى حد كبير بمذهب البصريين، وبسطت آراءه النحوية في أناة وريث ودقة، وتحدثت بالتفصيل عن مؤيديه في آرائه ومعارضيه من تلاميذه وخالفيه، ويمكن القول: إنها أول من عرض لسيرة أبي حيان بالتفصيل، وأول من حاول جمع مصنفاته وعرضها عرضا حسنا بعد أن حصلت على نسخ مخطوطة مبعثرة في المكتبات، كما صوّرت منهجه النحوي وأوضحت علاقته بالمدارس النحوية والنحاة المتقدمين عليه كسيبويه وابن عصفور وابن مالك وبينت موقفه منهم جميعا، واستطاعت أن تصور آراءه في السماع والقياس والعلة والشاهد والضرورة، وكان شديد التأثر بالبصريين وإمامهم سيبويه فمال إليه وجنح إلى نحوه واستفاد منه في توجيه آرائه وعرض أقواله[٤٣].

٣- سيبويه – حياته وكتبه:

وفي مؤلفها عن (**سيبويه- حياته وكتبه**) الذي قدّمته بطلب من وزارة الأعلام العراقية للمشاركة في المهرجان العلمي على ذكرى القائمين على خدمة لغة الضاد الذي خصصته عن إمام النحويين(سيبويه) الذي كان له الفضل الأكبر في جمع آراء شيوخه وشيوخهم في مسائل النحو والصرف واللهجات، وكان كتابه أول كتاب وصل إلينا يضم هذه المسائل، ولم يكن لمن جاء بعده فضل زيادة عليه إلا ما كان من تبويب وتنسيق لأبوابه وشواهده ، أو ما كان من تأليف التعليقات والشروح التي كانت بسطا في العرض وزيادة في التمثيل، فقسّمت مؤلفها إلى قسمين خصّت الأول في حياة سيبويه وثقافته وشيوخه ومناظراته ومجالسه، والثاني في كتاب سيبويه ومنهجه وشواهده ومخطوطاته وطبعاته[٤٤].

٤- موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف:

ولقد أنجزت الدكتورة هذا الكتاب بعد ما لمسته من اضطراب الآراء والأقوال والنقول عن القدماء والمحدثين في جواز الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف وما يلحق به من كلام آل البيت والصحابة، وما نسبه متأخرو الباحثين إلى النحاة الأوائل من تركهم الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف، وما ذكروه من أن أول من احتجّ به ابن خروف كما يرى ابن الضائع أو ابن مالك كما يرى أبو حيان أو السهيلي كما يراه البغدادي، وبعد استخراجها ما وجدته من أحاديث احتجّ بها النحاة على اختلاف أزمانهم من كتبهم التي ألفوها، أو مما نقله عنهم تلامذتهم من آراء درسها استطاعت أن تتبين أمورا هي:

١- إن أوائل النحاة احتجوا بالحديث الشريف وان كان احتجاجهم به في النحو والصرف قليلا.
٢- إن من جاء بعدهم من النحاة على اختلاف أمصارهم بصريين كانوا أم كوفيين أم بغداديين تابعوهم في الاحتجاج به على قلة أيضا، وان كان متأخروهم قد زادوا من عدد الأحاديث المحتج بها إلا أنهم لم يتوسعوا فيه.
٣- إن نحاة الأندلس كالسهيلي وابن خروف وابن مالك ومن جاء بعدهم من نحاة الأمصار الأخرى قد توسّعوا في الاحتجاج به، واعتمدوا في وضع قواعد جديدة أو استدراك قواعد على ما وضعه الأوائل على الحديث الذي قاموا باستقرائه من جديد، واثبتوا ما جاء منه وفيه صور من التعبير تختلف عما أثبته النحاة الأوائل.

٤- إن أول من وجدته قد احتج به من النحاة الأوائل أبو عمرو بن العلاء شيخ الخليل وسيبويه اللذين زادا عليه في الاحتجاج، واستمر الاحتجاج به في التوسع والكثرة حتى زمن الزمخشري وابن الشجري وابن الانباري حيث كثر عندهم الاحتجاج به.

وقد عرضت لآراء القدماء والمحدثين وموقفهم من تعليلي أبي حيان لترك الأوائل الاحتجاج بالحديث الشريف، لكونه مرويا بالمعنى ولكون رواته أعاجم، وبينت أن لا صحة لهذين التعليلين ولم يقل بهما أوائل النحاة، وإنما هما تعليلان وضعهما المتأخرون كابن الضائع وأبي حيان وتابعهما فيهما معاصروهما والمتأخرون عنهما.

وبينت الدكتورة رأي المحدثين في جواز الاحتجاج بالحديث في مسائل النحو والصرف، ولم يكن هذا الجواز مطلقا، وإنما وفق شروط ذكر معظمها المتأخرون كالشاطبي والبدر الدماميني وابن الطيب المغربي، وقد رتبها الشيخ محمد الخضر حسين وصنّفها وزاد عليها وأقر معظمها مجمع اللغة العربية بالقاهرة[٤٥].

إسهامات المرأة في المعرفة اللغوية وما نطمح إليه:

وعلى الرغم من كل هذه الانجازات الكبرى والإسهامات الحضارية للمرأة في مجال المعرفة اللغوية إلا أنها تبقى دون مستوى الطموح الذي نتطلع إليه، إذ نجد فقرا واضحا على صعيد المستوى التاليفي قديما وحديثا نظرا لانشغال المرأة بهموم الأسرة بشكل طاغ، وتخصيص الجزء الأكبر من اهتماماتها بتربية الأطفال والعناية بهم، وهنا نلفت الانتباه إلى الدور المهم الذي يجب أن تلعبه المرأة داخل الأسرة وعند تربيتها لأطفالها، فبدلا من مطالبتها بالانجاز العلمي فقط يمكن أن تقدم خدمات جليلة للنشئ الجديد إضافة لخدماتها في الحضانة والأمومة والرعاية، واعني بذلك التنشئة والتربية اللغوية السليمة للطفل، فمنذ ساعات الولادة الأولى يزداد تعلق الأم بوليدها وتحنو عليه وترعاه بشكل يفوق التصور والوصف، ويبدأ الطفل حينها بالتعلّق الشديد بأمه وتزداد هذه العلاقة بين الطرفين وتقوى بمرور الأيام والشهور، ويفتح الطفل عينيه ليجد أمه معه في غالب أحواله وسائر أيامه، فيبدأ معها أول ساعات تعلمه ليلتقط منها الكلمات الأولى التي يعالج صعوبة النطق بها، عندما تقول له الألفاظ الأولى في حياته: قل ما ما أو بابا أو دادا ... الخ، وفي كل يوم جديد يأخذ منه كلمات جديدة وألفاظا قشيبة، ويحاول تقليدها ومحاكاتها في كل شيء لا سيما الألفاظ التي تنطق بها والعبارات التي تصدر منها.

إن ما نطمح إليه من تحسين مستوى النطق السليم والحفاظ على سلامة اللغة العربية وصيانتها من الخطأ في التعبير وتعزيز الانتماء لهذه الأمة العربية، وتقوية مشاعر الاعتزاز بهويتها الخاصة بها والتي تمثل اللغة الجزء الجامع الأعظم من العناصر الجامعة بينها، وتنمية الإحساس بأهمية الخواص التي تتمتع بها هذه الأمة في ظل هذا الظرف التاريخي المرير الذي تتعرّض فيه لغزو عسكري شامل وثقافي واجتماعي واقتصادي ولغوي، حيث يخشى من انهيار عناصر الوحدة التي تجمع بين أقطارها وشعوبها، والتي تمثّل اللغة عنصرا مهما في ذلك النسيج الذي يجمعها ويوحد أهدافها وغاياتها... يقع العبء الأكبر فيه على السنوات الأولى التي ينشأ فيها الطفل بين أحضان أمه، والمكونات الأولى التي ترفده وتغذّيه وتجعله منتميا لامته عقيدة وسلوكا وثقافة، وهنا يكمن الخطر الكبير والدور المهم الذي تلعبه المرأة أيام التنشئة الأولى لوليدها، فللأم الأثر الأكبر في قوة بيان الطفل وتقويم لسانه، وما رأينا امرا اجمع عليه العرب ومن حاذاهم من أئمة اللغة ورواة الأدب واعيان البيان كإجماعهم على أن أول لوثة أصابت اللغة العربية لم يقذف بها إلا السنة الأمهات الهجناء الذين تزوج العرب بهم إبان الفتوحات الإسلامية وبعدها،

وليس ذلك بالأمر الذي يحوجه الدليل ويعوزه البيان، فان أمهات العرب لم يكنّ يناغين أبناءهن وهنّ زهر غض وصحائف بيض إلا بكل مورق مثمر من القول ، فينشأ ناشئهنّ عذب البيان غدق اللسان، وهنا نسجل طموحا مشروعا لكل الشباب الراغب في الزواج أن لا يتزوج إلا بامرأة عربية ويجتنب قدر الإمكان الزواج بالمرأة الأجنبية، حتى لا ينشأ أولاده على لغة أمهم عاجزين عن النطق السليم بلغة أبيهم، فضلا عن ضعف الانتماء للأمة عقيدة وسلوكا ولغة، نتيجة الضعف اللغوي الذي لحقه من أمه الأجنبية، وضعف انتمائها لثقافة الأمة الجديدة التي اقترن بها احد أفرادها.

إن للغة الأم العربية السليمة ولوازعها المنتمي إلى أرومتها يجعلها تعطي وليدها اللغة والعقيدة كما تعطيه الحنان والدفء والرعاية، ولذا يجب الاهتمام بتعليم الأم اللغة العربية السليمة الفصيحة أو القريبة من الفصحى بعيدا عن العيوب النطقية التي تتسم بها بعض اللهجات العربية المحلية وعن الألفاظ الأعجمية والدخيلة على المجتمع نتيجة الظروف والمقتضيات الجديدة، ولقد مارست الأم هذا الدور سابقا وأبدعت فيه حيث أنشأت جيلا فصيحا متمكنا من لغته قويا في انتمائه سليما في نطقه، فقد روى الجاحظ أن جعفر بن يحيى وزير الرشيد أرفق الناس برياضة القول واعرفهم بفنون الكلام، وكان إذا عقّب رسالة أو وقع تحت كتاب فإليه مباءة البلاغة ونهاية الإيجاز، حتى لقد يتدافع الكتاب على بابه فيشترون من حجابه كل توقيع بدينار ، كل ذلك ورثه جعفر عن أمه لا عن أبيه[٤٦].

ولقد انتبه المصلحون إلى دور الأم الكبير في تثقيف أولادها وتعليمهم وترصين خطابهم وتسديد حديثهم، فقد رفع المعلم(بطرس البستاني) الصوت عاليا عام(١٨٤٩م) مطالبا تحرير المرأة وإرسالها إلى المدارس لتتعلم وتتثقف ولتصبح أما صالحة قادرة على إعداد جيل صالح قابل لما ينتظره من علم وثقافة، لا امرأة جاهلة تجني على الوطن بتربية أطفاله على أيدي جاهلات غريرات لم يتعرّفن إلا على جدران البيت.

وبما أن المرأة اليوم قد تحررت وشاركت الرجل في مختلف العلوم والفنون لذا نطمح اليوم منها إلى الاهتمام بتربية أولادها من الناحية اللغوية وتقوية ملكاتهم اللسانية عن طريق تحفيظهم نصوصا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي الفصيح ليشبوا على اللغة السليمة والنطق الفصيح والعبارة المتماسكة، وكانت الجواري والخادمات في العصر العباسي يقمن بهذا الدور المهم بدلا من الأمهات ، حيث اضطرت الإماء نتيجة ذلك إلى حفظ الآلاف من البيوت الشعرية لكي يزداد ثمنها عند مشتريها ومقتنيها لتأديب أولاده وبناته مما أثرت فيها تلك الثقافة على إعداد جيل مثقف ومتذوق ومتفهم للنصوص الفصيحة.

وقد حرص الإسلام على تثبيت العقيدة في نفوس الأطفال منذ نعومة اضفارهم فحثّ المربين من الآباء والأمهات على تعليم أطفالهم مبادئ الإسلام وتلقينهم الشهادتين والصلاة وما تشتمله من أذكار تقوي ملكاته اللسانية ومهاراته اللغوية، ويجب التركيز على حفظ قصار السور من القرآن والأحاديث الشريفة والمأثور من الحكم وقصص الأنبياء وحكايات الأبرار والخط وبعض الشعر.

وان مما يثلج الصدر ازدياد عدد الخريجين من الإناث في التخصصات اللغوية في جميع الأقطار العربية، وانصرافهن إلى العمل في سلك التربية والتعليم طيلة سنوات عطائهن، بل إن قسما كبيرا منهن جنحن إلى إكمال دراساتهن العليا بعد الحصول على الشهادة الأولية في تعليمهن الجامعي، وأخذن يؤلفن الرسائل والاطاريح التي تتناول قضايا اللغة العربية ومباحثها في مختلف الحقول والتخصصات التابعة لها، إلا أن هذا العطاء المهم والدور الفعال اقتصر على مجال البحث الأكاديمي والدراسات التنظيرية إلا

انه افتقد الدور التطبيقي له عندما تركت هذه الأم وغيرها غرس اللغة السليمة في أبنائها عند تنشئتهم وفي سني حياتهم الأولى، بل إن مما يؤسف له أن بعضا من الأمهات المثقفات اللواتي أكملن دراساتهن الجامعية يملن إلى تعليم أولادهن اللغات الأجنبية منذ الطفولة كاللغة الانكليزية أو الفرنسية إيمانا منهن بضرورة وأهمية تعليم هذه اللغات باعتبارها الوسيلة للتطور العلمي ونيل الدرجات العلمية العالية في الحياة العامة والعلمية على سبيل الخصوص، وهذا أمر لا باس به لو تم التركيز على إتقان اللغة الأم والتقليل من عيوب اللهجات المحلية والتخلص من الألفاظ الأعجمية والعيوب النطقية، ولذا يوصي هذا البحث بأهمية إقامة الدورات المكثفة والحلقات العلمية والندوات لجميع الأمهات وتعليمهن من خلال كتب مصنفة ومنتقاة في هذا المجال من قل خبراء تعليم الطفل لغته السليمة على أهمية التنشئة اللغوية للطفل ووضع كتب بين أيديهن يرجعن إليها لانتقاء الألفاظ المناسبة والتعابير الفصيحة عند التربية والإنشاء، ويشرف على هذا العمل مراكز أو مؤسسات استشارية، ويهتم الإعلام العربي بإنشاء القنوات الفضائية المتخصصة في هذا الجانب المهم في التربية، لان الطفل هو بناء الغد وضمانة المستقبل، وعندما يربى على اللغة الفصيحة والبيان الدال فانه سيرتبط لا شعوريا بأسلافه الاماجد وتاريخه العظيم وحضارته التليدة، وبذلك يتعزز انتماؤه لامته وإيمانه بقضاياها المصيرية واعتزازه بأهدافها النبيلة.

الهوامش والمصادر

١) السنة ومكانتها في التشريع- مصطفى السباعي، القاهرة (دار السلام) ط٢، ٢٠٠٣م : ٦٤.
٢) أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي- فتحي الدجني، الكويت (وكالة المطبوعات)، ١٩٧٤م : ٣٩-٥٠.
٣) ينظر: سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٢: ٣٦٤٦، مسند احمد بن حنبل، (ت ٢٤١هـ) ، شرحه ووضع فهارسه : احمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٥٦: ٢/ ١٦٢، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ) ، القاهرة ، ١٩٥٩: ١/ ٢٠٧.
٤) كنز العمال- علاء الدين الهندي(ت ٩٧٥هـ)، صححه الشيخ بكر الحياني، لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م : ١/ ١٥١، ولينظر المدارس النحوية- شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٧ : ١.
٥) الأضداد في اللغة- أبو بكر محمد بن القاسم الانباري، تصحيح محمد عبد القادر الرفاعي، القاهرة، مكتبة الأزهرية : ٢٤٤.
٦) الامالي- أبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ) ، بيروت ، د . ت : ٥.
٧) تاريخ١٩٧٧م:وأصوله- عبد الحميد سيد طلب، القاه١٩٧٦م:بة الشباب، ١٩٧٧م: ٢٠.
٨) تجديد النحو العربي- عفيف دمشقية، بيروت، ط١، ١٩٧٦م : ٤٣.
٩) فقه اللغة وسر العربية - الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ) ، بغداد ، ١٩٧٥: ١.
١٠) ينظر: كشف الخفا- إسماعيل العجلوني (ت ١١٦٢هـ)، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م : ١/ ٤٤٩.
١١) سير أعلام النبلاء- شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الارناؤوط، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م : ٢/ ١٧٩.
١٢) البرهان في علوم القرآن- الزركشي محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ) ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨: ١/ ٢٩٨.
١٣) فقد خصص ابن الأثير الجزء السابع برمته للشيخات المحدثات.
١٤) الأعلام- خير الدين الزركلي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م: ٢/ ١٣.
١٥) طوق الحمامة في الألفة والألاف- ابن حزم الأندلسي، تحقيق بشير محمد عيون، دمشق مكتبة دار لبنان ٢٠٠٢: ٥٠.

١٦) السيوطي النحوي- عدنان محمد سلمان، ، بغداد، ١٩٧٦م : ٧٩.
١٧) الأعلام- الزركلي: ٨/ ٩٩، أعـلام النســاء- عمر رضا كحالة ، دمشق (المطبعة الهاشمية) ط٢، ١٩٥٩م: ٥/ ٣٧، معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، بيروت، ١٩٥٧: ١٢/ ٢٢٢.
١٨) أعلام النساء: ١/ ٩.
١٩) هدية العارفين- البغدادي، إسماعيل باشا ، استانبول ، ١٩٥١: ٤١٥.
٢٠) مرآة الجنان- اليافعي، حيدر آباد، ١٣٢٧هـ : ٣/ ١٢١.
٢١) م . ن: ١/ ٧١.
٢٢) م. ن: ١/ ٨٤.
٢٣) بغية الوعاة، السيــوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ط١، ١٩٦٥م: ٢/ ٢٦٨.
٢٤) أبو حيان النحوي- خديجة الحديثي، بغداد، ١٩٦٦م: ٤٨- ٤٩.
٢٥) الأعلام- الزركلي: ٨/ ٩٨- ٩٩.
٢٦) الأعلام- الزركلي: ١/ ٨١- ٨٧.
٢٧) أعلام النساء: ١/ ٧١.
٢٨) أعلام النساء: ١/ ١٠٧.
٢٩) أعلام النساء: ١/ ٢٣١.
٣٠) الحقوق التعليمية للمرأة في الإسلام- منى علي السالوس، القاهرة، دار النشر للجامعات، ط١، ٢٠٠٣م: ١٧٤.
٣١) مجلة العربي- سلمى الحفار الكزبري/ العدد ٥٣٩، أكتوبر ٢٠٠٣.
٣٢) الإعجاز البياني للقران- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١: ٢٠٧.
٣٣) الإعجاز البياني للقران: ٢٢٠.
٣٤) م. ن: ٢٢٢.
٣٥) الإعجاز البياني للقرآن: ٢٢٦.
٣٦) لغتنا والحياة- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، القاهرة ، جامعة الدول العربية ، ١٩٦٩: ٢٤- ٢٦.
٣٧) لغتنا والحياة: ٤١- ٤٤.
٣٨) لغتنا والحياة: ٩٧، ١١٨.
٣٩) لغتنا والحياة: ١٣٥- ١٤٢.
٤٠) دراسات في كتاب سيبويه- خديجة الحديثي، الكويت وكالة المطبوعات: ٤٨- ٥٩.
٤١) م. ن: ١٠٠- ١٠٩.
٤٢) م. ن: ١٨٠- ١٨٦.
٤٣) أبو حيان النحوي- خديجة الحديثي: ٤٥٣.
٤٤) سيبويه حياته وكتابه- خديجة الحديثي، بغداد، ١٩٧٤م : ٥.
٤٥) موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث النبوي- خديجة الحديثي، بغداد، ١٩٨١م : ٤٠٣.
٤٦) البيان والتبيين- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٨م : ١/ ٥٩.

أحيانا	نادرا